

الإنسان حيوان ناطق

هذا التعريف للإنسان، شرح لحقيقته التي يتألف منها، فهو حيوان تمور فيه الحياة، وهو ناطق يقبل العلم وصنعه الكتابية، فليس يشركه في هذين الجرايين خلق من خلق الله، فهو متفرد بالحيوانية، مضمومًا إليها أنه قابل للعلم وصنعة الكتابية، وهو بهذا مع الحيوان في أنه جامع للغذاء، مدّخر له، حريص على حياته، قادر على أن يقى نفسه الحرّ والبرد، والهوام والحشرات والوحوش والسيّاح، وهو فوق ذلك قادر على أن يصنع من الآلات ما يسخر به لخدمته التامى وغير التامى، والحيوان وغيره من خلق الله، وما أصدق فرانكلين في تعريفه الإنسان بأنه حيوان صانع للآلات، ومن هذه الآلات بلا ريب آلات الصيد.

وكما أعطيناك صورة واضحة أو أقرب ما تكون إلى الوضوح عن الحيوان، يجمل بنا أن نعطيك صورة عن الإنسان الذى كرمه الله وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفصله على كثير من خلقه، فنقول وبالله تأييد، وعليه التكلان.

كيف نشأ:

يختلف أهل العلم حول نشأة الإنسان بين جانح لافتراض، وخاضع لاعتقاد، ولكل وجهة هو موليها وبرهان هو مستظهر به.

الافتراضيون:

إن الجانحين إلى الافتراض يتخذون لهم أئمة في ذروتهم دارون ونيتشه في قولهم: «إن الإنسان قنطرة بين القرد والسوبرمان»^(١).

وفي هذا يقول الأستاذ العقاد: وكاد يمزح من يقول هذه الكلمة، وإن لم يقصد إلى المزاح. فإن القنطرة التي قصارها أن تنقل الإنسان من قرد إلى سوبرمان لا توجد ولا يمكن أن توجد: فتلك قنطرة لا يسيها القرد، ولا يبنها السوبرمان ولا تبنى نفسها بيديها، ولا تبنها الطبيعة التي قد تخطو من حائق إلى الهاوية، وقد تخطو من الهاوية عينة ويسرة إلى غير وجهة.

إنما الأحجى أن يقال إن الإنسان قنطرة من الأرض إلى السماء يبنها الله تعالى: قنطرة قرارها أسفل سافلين وذروتها أعلى عليين، معراج من التراب المجبول إلى أفق الأرواح والعقول: ﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

ونحن نقول: ومن حجة الافتراضيين من أمثال دارون ونيتشه، الزائدة الدودية التي لا حاجة بالإنسان إليها، فيما ظهر لعلماء التشريح حتى الآن، وكذلك الشبه الواضح بين بعض فصائل القردة وبعض بنى الإنسان في بعض جوانب الأرض.

وأخوف ما يخافه الحراس على كرامة العلم أن تكون لعصبيات الأجناس مداخل إلى أفكار بعض أولئك العلماء وهم يتناولون بالحديث نظرية الترقى هذه فهنا تكون الطامة الكبرى في خضوع العلم للأهواء والعصبيات، إذ

(١) السوبرمان: وصف للمبغى لدى يستل على سواد الناس، وأول من سعمل الكلمة «جيت» لميلسوف لألماني.

ليس في الدنيا شيء أخطر على الحقيقة من الأهواء والعصبيات.

ووجه الخوف في ذلك أنه إذا كان للجنس الأبيض أن يستصحب في تقرير نظرية الترقى هذه شكل إنسان زنجى لأنه يرى شبهاً بين صورته وصورة القرد، فإن من حق الناقضين لهذا الفرض أن يستصحبوا صورة الشعر الكثيف الذى يغطى جسام القردة وجسام بعض القائلين بهذه النظرية. فإنه إذا كان شكل الوجه يصلح برهاناً على سلامة النظرية القائلة بالترقى، فإن كثافة الشعر تصلح برهاناً على سلامة نظرية غيرهم.

فالترقى عن قرد هنا، هو الترقى عن قرد هناك. وليس يخفى أنه إذا قامت إحدى النظريتين في مواجهة الأخرى فقد تعارضا فتساقطتا، كما يقضى بذلك في موازين المنطق البديهيات وهكذا يتراءى للنظر المتدبر أمران:

أحدهما: أنه لا ثمرة تترتب على هذا الفرض الموهل فى بيداء الخيال. وثانيهما: أنه فرض لا ينبغي أن يشرف به أبيض، ولا أن يخجل منه أسود أو ملون، من حيث كنا جميعاً - بيضاً وسوداً وملونين - فى نظر هؤلاء الجانحين إلى الافتراض، مترقين عن حيوان.

أهل الدين:

وإن الخاضعين للعقائد الذين يتخذون من الديانات الكتابية منهاجاً، ومن أنبياء الله ورسله هداةً وأئمة، ليؤمنون بأن الإنسان خلق قائم بذاته، وأن العناية الإلهية أرادت هذا الإنسان - بما جبل عليه من صفات، رشداً أو غيأ، وطاعة أو معصية - خليفة في الأرض لعمارتها، على ما يقرر ذلك القرآن الذى أنزله الله بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه: ﴿وَإِذْ

قال ربُّكَ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴿١﴾.

فهذه الآية - مع ما يجرى معها في كتاب الله من آيات - تقرّر في صراحة لا تحتمل التأويل أن الإنسان خلق ابتداءً دون أن يترقى عن حيوان.

ومما يجرى بجرى هذه الآية الكريمة - في تقرير أن الإنسان خلق قائم بذاته - قول الله جل ثناؤه: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، فهذه الآية تدلُّ على أن الخالق جلُّ ثناؤه قد خلق الإنسان في صورته ابتداءً، لأن هذه الصورة هي التي يصلح لها هذا التعبير (أحسن تقويم).

ولعل من أحسن ما يقال في هذا المقام ما ذكره الأستاذ العلامة أحمد زكي^(١) حيث قال:

إن مشكلة الحياة الأولى، هي مشكلة العيش، وهي مشكلة الإنسان والحيوان، والحيوان لا يعلم عن السماء شيئاً، وما كان له. فإن قوامه غير قوام الإنسان، إذ أن قوام الإنسان رأسى، وقوام الحيوان أفقى، فعين الحيوان تتجه طبعاً إلى أسفل، إلى الأرض، كما ترى ذلك في البقر وفي الخيل. وقلُّ من الحيوان من يستطيع أن يتجه ببصره إلى السماء، وليس ينقصه من خير العيش، أنه لم يستطع أن يتجه ببصره إلى السماء.

حتى الإنسان - في قوامه الرأسى المعتدل - إذا ألقى ببصره ألقى به إلقاءً أفقياً، مع أن من السهل عليه أن يحنى رأسه إلى الأرض، بمعونة عنقه،

إذ ينحن تسعين درجة فيرى بذلك ما عند قدمه. ويسهل عليه أن يرفع رأسه إلى أعلى، إلى السماء، فيرفعه بمعونة عنقه، إذ ينثنى أربعين درجة أو خمسين أو فوق ذلك دون أن يُحس ألماً في عنقه.

فالذى صمم جسم الحيوان وركب هيكله، كأنه لم يُرد من هذا التصميم أن يتمكن الحيوان من النظر إلى السماء، لأسباب، من أظهرها أنه - مع عقله العاجز - لا يستفيد من هذا النظر شيئاً.

وعلى غير هذا الطراز، صمم جسم الإنسان وركب هيكله، ذلك أن لإنسان عملٌ واسعٌ كثير الوعي، قادر كبير القدرة، فهو يستفيد من النظر إلى السماء أكبر استفادة، ويلقى في سبيل هذا النظر بعض المشقة، ولكنها مشقة تهون في هذه السبيل التي هو فيها.

علم بلا أوهام:

وربما ظن بعض ناشئنا وأهل المعرفة فيما أن التنبه إلى خصائص القردة وحسن استعدادها وشدة قبولها للتأديب، من الأمور التي اختص بالكشف عنها لعلماء الافتراضيون في العصور المتأخرة، ولكن ذلك خطأ كبير، فإن أسلافنا عرفوا من ذلك شيئاً كثيراً، بيد أنهم لم يستأسروا للتخيلات، كما استأسر لها الذين لا يبالون بالإعراض عما أنزل الله من كتاب فإذا هم يضربون في متاهة بلا أعلام ويخطون في مجاهل بلا حدود.

إن أرض الله تعالى - على سعتها - لم يبق فيها جانب مجهول، والصاربون في كل أرجائها - على مخاطراتهم وهيامهم بالحديث عن كل عجيب - لم يؤثر عنهم أنهم رأوا مخلوقاً من المخلوقات أو فصيلة من الحيوانات في آخر المراحل التي تنتهي إليها سلسلة الحيوان، لتبدأ منها سلسلة الإنسان.

فإن لم يؤثر ذلك عن أحد - مع الكشف عن كل مجهول في أرض الله -
 فذلك برهان، أى برهان، على أن هذه النظرية مُعَرَّقة في الوهم وموغلّة في
 الافتراض، وإلا فإن عالماً لا يتصور أن ترقى الإنسان عن حيوان يجرى
 دفعة واحدة في لحظة واحدة من ليل أو نهار، إذ لا بد من أمد طويل تنهياً
 فيه أجهزة الحيوان لكي تصبح صالحة لتكون أجهزة إنسان. إن هذا
 مما تقضى به بدائنه العقول.

قلنا: إن من الخطأ الظنّ بأن العلماء في العصور المتأخرة هم الذين
 كشفوا عن ذكاء القردة فعرفوا من ذلك ما دلهم على قوة قبولها للتأديب،
 وذكرنا أن الأسلاف سبقوا إلى ذلك سبقاً بعيداً، بدليل يتمثل لمن يرتاده في
 قصص كثيرة وأخبار مختلفة:

منها ما روى ابن عدى في «الكامل» عن أحمد بن طاهر قال: رأيت
 بالرملة قرداً يصوغ، فإذا أراد أن ينفخ أشار إلى رجل ينفخ له.

ومن ذلك ما روى العلامة المصرى (الدميرى)^(١) من قوله: إن القرد
 شبيه بالإنسان في غالب أحواله، لأنه يضحك ويضطرب ويفلّذ ويتناول الشيء
 بيده، وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر، وهو يقبل التلقين والتعليم ويأنس
 بالناس وربما مشى على رجلين حيناً من الزمان يسيراً، وإذا سقط في الماء
 غرق كالآدمى الذى لا يحسن السباحة، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على
 الإناث وهما خصلتان من مفاخر الإنسان.

ومن ذلك أن ملك النوبة أهدى إلى الخليفة المتوكل قرداً خياطاً وآخر
 صائغاً، وأن أهل اليمن يعلمون القردة القيام بحوائجهم، حتى إن القصاب
 والبقال يعلم القرد حفظ الدكان حتى يعود، وربما علّموه السرقة فسرق.

وحول ذكاء القردة وقوة إدراكها روى الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً حمل معه في سفينة خمرًا لبيعه - وكان معه قرد - فكان الرجل إذا باع الخمر، شابه بالماء ثم باعه. فأخذ القرد الكيس فصعد به فوق الدقل^(١) فجعل يطرح دينارًا في البحر ودينارًا في السفينة حتى قسّمه».

وكذلك روى البيهقي عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «لا تشوبوا اللبن بالماء فإن رجلاً فيمن كان قبلكم كان يبيع اللبن ويشوبه بالماء، فاشترى قردًا وركب البحر حتى إذا لجج فيه ألهم الله القرد صرة الدنانير فأخذها وصعد الدقل ففتح الصرة - وصاحبها ينظر إليه - فأخذ دينارًا فرمى به في البحر، ودينارًا في السفينة حتى قسّم الصرة نصفين، فألقى ثمن الماء في البحر وثنى اللبن في السفينة».

ولا يستعصى على التأمل أن يسيع الجمع بين الرويتين، وإحداها تذكر اللبن وهو حلال، والأخرى تذكر الخمر وهو حرام، والحرام لا حرمة له، وذلك أن الغش حقير عند كل ذى مروءة، فهو حرام، ولو كان غشًا في حرام، وهذا أقصى ما يمكن أن يبلغه التحذير من الغش في باب البيان.

أين نشأ الإنسان؟

عرفت أن الخاضعين لأحكام الله في الديانات الكتابية يؤمنون بأن الإنسان خلق قائم بذاته، وأن العناية الإلهية أرادته لعمارة الأرض، على ما تقرره الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) الدقل حشبة طويلة شد في وسط السفينة يد عليها الشراع، وتسميه البحرية (الضاري).

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين.

وأهل التأويل يختلفون في الجنة المرادة في هذه الآية: هل هي جنة الخلد أو هي بستان في الأرض؟

فمن هؤلاء من ذهب إلى أنها جنة الخلد التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، محتجين لمذهبهم بظاهر القرآن، ثم بما ذكره ابن القيم عن أبي موسى: أن الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمارها وعلمه صنعة كل شيء، فتماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير.

ومنهم من ذهب إلى أن الجنة ليست جنة الخلد ولكنها بستان في الأرض، حاملين الإيهام في الآية الشريفة على الانتقال من بقعة إلى بقعة.

وخلاصة ما ذكره تأييداً لرأيهم الذي ذهبوا إليه يتلخص فيما يلي:

أن الله تعالى أخبر على لسان جميع رسله أن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة، ولما يجيء زمن دحوها.

وقد وصف الله تعالى جنة الخلد في كتابه العزيز بصفات. ومحال أن يصف الله تعالى شيئاً ثم يكون على غير الصفة التي وصفه بها، وقد وصف ربنا الجنة التي أعدت للمتقين، بأنها دار المقامة فمن دخلها أقام بها. وادم لم يقيم في الجنة التي أدخلها. ثم وصفها بأنها جنة الخلد. وادم لم يخلد فيها. ووصفها بأنها دار ثواب وجزاء لا دار تكليف وأمر ونهى، وقد كلف الله فيها آدم وزوجته. ووصفها بأنها دار سلامة مطلقة، لا دار ابتلاء وامتحان، وقد ابتلى فيها آدم أعظم الابتلاء. وسماها تعالى دار السلام، ولم يسلم فيها الأيوان،

كما سماها دار القرار، ولم يستقروا فيها. وقال في داخلها «وما هم منها بمخرجين»، وقد أخرجها منها. وأخبر سبحانه أنه لا لغو فيها ولا تأنيب، وقد سمع فيها أبونا آدم لغو إبليس وإثمه.

فإذا اجتمع ذلك كله مضمومًا بعضه إلى بعض وتأمله المنصف الذي لاح له علم الدليل فربما بنفسه عن حضيض التقليد، تبين له على غاية 'الجلاء' وجه الصواب في أن الجنة التي أوطنها أبوانا، ليست جنة الخلد ولكنها بستان في الأرض.

قال العالمان الجليلان أبو مسلم الأصفهاني وأبو القاسم البلخي: ومعنى الإهباط الانتقال من بقعة إلى بقعة، كما عبر عن ذلك القرآن: ﴿إِهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾.

ونحن نرى أن في التعبير بالهبوط معنى جليلاً ينبغي التنبيه له، وليس هو الانتقال من بقعة إلى بقعة.

وبيان ذلك أن هذا البستان الذي أوطنه أبوانا في الأرض كان بموضع مرتفع فالتعبير بالهبوط على هذا أشد وضوحًا وأبين فائدة.

فأما أنه أشد وضوحًا فلأن الهبوط من ربوة إلى منخفض، هبوط من أعلى إلى أسفل، فالكلمة مستعملة في موضعها من الحقيقة.

وأما أنه أبين فائدة فلأن البستان - الجنة - كلما كان بمكان مرتفع كان أبعد من الغمق^(١) والومد^(٢).

وبهاتين الصفتين، يكون البستان أطيب هواء، وأكرم أشجارًا، وأكثر

(١) أرض عميقة كثيرة لأنداء ونبته.

(٢) الومد: ندى يجيء في صميم الحر من قبل لبحر فيكاد يحرق الناس.

وأشهى أثماراً، على ما تسير إلى ذلك الآية الكريمة من سورة البقرة: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْبِحْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

لغة الإنسان:

وكما اختلف أهل النظر حول الإنسان في نشأته أخذًا بظاهر النص أو جنوحًا إلى منطوق الافتراض، اختلفوا كذلك في لغته، فقال قوم: إن اللغة وحى وتوقيف^(١)، وقال آخرون: إنها تواضع واصطلاح.

وقد احتج الذاهبون إلى أنها وحى وتوقيف بقول الله جل ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

فقد ذكر الله جل ثناؤه في هذه الآيات أنه علّم آدم الأسماء كلها، بمعنى أنه علّمه مسميات الأسماء مع أسمائها، فأراه الأجناس التي خلقها، ثم أعلمه أن هذا يسمى فرسًا، وهذا يسمى بعيرًا، وهكذا، ثم علّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع، ثم عرض سبحانه المسميات على الملائكة قائلاً لهم: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في زعمكم أنى أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء، فيرد بذلك جل ثناؤه عليهم مقررًا لهم أن فيمن يستخلفه لعمارة الأرض من الفوائد العلمية التي هي أصول الفوائد كلها ما يستأهل

(١) التوقيف على الشيء: لنص عليه.

ادم وذريته لأجله أن يكونوا مستخلفين في الأرض، فبين لهم بذلك بعض ما أجل من المصالح في استخلافهم التي اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقال المؤثرون جانب التواضع^(٢) والاصطلاح: إن اللغات كلها، من الأصوات المسموعات، كدوى الريح وقصف الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار وصهيل الفرس ونعيق الغراب، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. والمعروف - بشهادة العقل والاستفراء، وتتبع نطق الأطفال والأمم الراقية وغير الراقية - أن لغات العالم ترجع إلى أمهات أصلية، تولدت وتتولد عنها، وأن كل واحدة من هذه الأمهات هي المنشأ الأول لفروعها، وأنها كلها، تنشأ من جدة عليا مجهولة، هي لغة الإنسان الأول، وتلك الجدة هي الكلمات القليلة التي كان يعبر بها الإنسان الأول عن رغائبه الضئيلة، أو عن الأشياء المحيطة به.

وبعض هذه الكلمات تُقتبس من محاكاة الأصوات التي تصدر عن الحيوان والإنسان والرياح وغير ذلك، على نحو ما تفعل الببغاء التي هي دون الإنسان في الإدراك. وبعض هذه الكلمات مرتجلة بطبيعة القوة الناطقة التي أودعها الله الإنسان وميزه بها عن سائر الحيوان، وهي فيه إلهام فطري أسمى من الإلهام المودع الحيوان الأعجم، فإننا نسمع الطيرة غموه ببضعة أصوات مختلفة تظهر بها انفعالاتها ومطالبها. فصول الاستعطاء والاستلطاف، غير صوت الغضب والزجر.

ولذلك عندما يحيش صدر الإنسان بإظهار رغبة أو رهبة، يصيح بصوت

(١) جارته الرعوى.

(٢) التواضع: الاتساع على وضع اللفظ بإزاء معنى ليدل عليه عند الإخلاص.

مصور بصورة ما، حسبما يلهمه الله تعالى، فيسمعه غيره فيفهم عنه مراده، بإضافة قرينة حال، أو إشارة كما يشاهد ذلك كثيراً في الأطفال عند محاولتهم النطق، فإذا وجد أنه أدى غرضه مضى يستعمل ذلك ثانية وثالثة في إفهام رفقاته، فيذيع ذلك بينهم ويعرف، دون حاجة إلى قرينة.

وهكذا يفعل غيره فعلمه، ويقلدها ثالث ورابع حتى تتكون اللغة الأولى الضرورية التي يعيشون فيها دون اتفاق عليها، ودون تعمّد أو قصد إلى الاتفاق، ثم تتسع هذه اللغة بطرق النمو المعروفة، كالاشتقاق والزيادة والنقص والتحريف والتحويل من الحقيقة إلى المجاز.

أما اللغات الفرعية، فإنها تنشأ من هجرة بعض طوائف الإنسان إلى جهات متباعدة، فيدفعهم التقاطع إلى نسيان بعض الكلمات لعدم استعمالها في وطنهم الجديد، أو يدفعهم تقاطعهم هذا إلى تحريفها على طول الزمان، وقد يرون في وطنهم الجديد ما لم يكونوا قد رأوه من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون إلى وضع كلمات لها على الوجه المذكور آنفاً.

وهكذا تتباعد اللغات الفرعية عن الأصلية، كلما تباعد الزمان والمكان، ويزيد مدى التباعد إذا جاءوا أما تتكلم بغير لسانهم الأصلي، فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين في بيئة لغتهم.

فإذا طال الأمد على أهل لغة فكثر عددهم، أو ارتقت الصفات الإنسانية فيهم، اتسعت هذه اللغة وتعددت أساليب التعبير فيها فضاقت جفقت أى فرد من علمائها عن الإحاطة بها.

وهذا يظهر أن اللغات وضعها البشر من غير سابقة اصطلاح أو اتفاق، كما يظهر أن قول من يقول بأنها وحى وتوقيف استدلالاً بالآية الشريفة، هو

قول لا يُعقل منه إلا أنها - أعنى اللغة - متوقفة على إلهام من الله تعالى واهب النطق للإنسان، ومعروف أن النص إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال، فلا استدلال بالآية الشريفة على أن اللغة وحى وتوقيف استدلال غير صالح، وهذا يرجع الرأى القائل بأن اللغة تواضع واصطلاح^(١) وهو الرأى الذى تشرح له صدور الباحثين المتدبرين.

دين الإنسان:

وكما اختلفت أهل النظر هؤلاء فى نشأة الإنسان ولغته، اختلفوا فى مدى عناية الخالق تعالى به فى دينه: هل تركه ربه سُدى غير منهى ولا مأمور، أو شمله بعنايته فأمره ونهاه.

يبحث الافتراضيون إلى معان كثيرة يرتادونها فى آفاق فسيحة من الخيال تتعلق بالرؤى والأحلام وعبادة الأسلاف وما إلى ذلك من الأوهام التى لا ترفع من حق ولا تضع من باطل.

وقد كتب فى هذا الباب كثير من كتّاب الغرب ومؤلفيه. فمن شاء أن يتوسع فى هذه البحوث، فإنه يستطيع الرجوع إلى مثل (الديانات فى إفريقيا السوداء)، أو (حياة الحقائق)، فقد تناول الكتابان وأمثالهما كثيراً هذا الموضوع تناولاً مستوعباً.

غير أن أصحاب العقائد يؤمنون بأن الدين فى التركيب الإنسانى، متعلق بغريزة من أقوى غرائز الإنسان سلطاناً عليه، وهى غريزة حب الخضوع التى تناظر فى الفطرة غريزة حب الاستعلاء، فكما أن الإنسان، يسعه -

(١) راجع فى هذا الباب كتاب المصانص لابن جنى، ومذكرات أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندرى.

بحكم غريزة حب الاستعلاء - أن يستعل، يسعده كذلك - بحكم غريزة حب الخضوع - أن يخضع.

ولما كانت غاية الإنسان منحصرة في تجنب ما يخشاه وتطلب ما يرجوه كان كل ما يحقق له ذلك، دافعاً له إلى الخضوع لكل ما يدفع عنه الخوف ويحقق له الرجاء. ولذلك عبد كل ما يخشاه اتقاءً للضرر وابتغاءً للخير، فكانت غريزة حب الخضوع فيه منشأةً لدينه.

ثم إن هاهنا طريقين لإرضاء غريزة حب الخضوع في الإنسان:

إحداهما: طريق الدين الذي ابتعث الله تعالى به رسله وأنبياءه، يرشدون الخلق إلى الله واللجأ إليه واللياذ به وابتغاء الخير عنده حين يخافون وحين يرجون.

والطريق الثانية: أن يتركوا سدى تسخرهم غرائزهم، فتسوقهم غريزة التخاذل لأناس مثلهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فيتخذون منهم آلهة ويعملونهم أرباباً يخضعون لهم حين يخافون وحين يرجون، وفي ذلك من الخطر على الكرامة الإنسانية ما لا يحجل موضعه إلا جاهل، ولا يذهل عن مغبته إلا ذاهل.

فالدين الذي ابتعث الله به رسله وأنبياءه، وهو - عند التحقيق - تكريم للإنسان الذي سخر له ربه ما في السماوات وما في الأرض، وسخره هو في عبودية رب السماوات والأرض، وهى العبودية التى ينتهى إليها أقصى ما تبلغه حرية الأحرار.

والأصل الجامع في هذا الباب قول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ

الناس فيها اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم
البيانات بغيًا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله
يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿١٠٠﴾.

فقد كان الناس - بحكم الآية الشريفة - متفقين على دين الإسلام، من
حيث كان الإسلام دين جميع أنبياء الله ورسله، لأنه دين الفطرة، ولكن
هؤلاء الناس اختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

ذلك أحد الرأيين في معنى الآية.

وقالت طائفة أخرى: إن معنى الآية أن الناس كانوا أمة واحدة كفارًا،
فبعث الله النبيين إليهم فاختلَفوا عليهم.

وأياً ما كان الأمر في المذهبين، فإن الذي لا ريب فيه أن الله تعالى لم يخلق
الناس عبثاً، ولم يتركهم سدى، فذلك هو ما تستوجهه الفطرة القويمة ويقضى
به التأمل البصير: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يعنى - جل ثناؤه - قوم وجهك لله وعد له إليه، غير ملتفت عنه شيئاً ولا
سملاً. فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه
مقبلاً به عليه.

وقد أمر تعالى بلزوم فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإنه - سبحانه -
خلقهم قابليين للتوحيد، غير نائين عنه ولا منكزين له، لكونه مجاوباً للعقل
البصير، مساوفاً للنظر الصحيح الذي لا تحجبه الأهواء، حتى لو أن الناس تركوا
لأنفسهم بغير مبعوث إليهم من قبل العناية الإلهية، لما اختاروا على دين التوحيد
ديناً آخر. ومن غوى من عباد الله، فباغواء شياطين الإنس والجن، كما يروى

ذلك رسول الله ﷺ عن ربه « كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم وأمرهم أن يشركوا بى غيرى»، وكذلك قوله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه».

غذاء الإنسان:

وكما اختلف أهل النظر حول الإنسان فى نشأته، وفى الوطن الذى بدأ فيه أولى خطواته، وفى اللغة التى استعان بها على أن يفهم ويفهم، وفى الدين الذى كان يلوذ به فى خوفه ورجائه - اختلفوا فى غذائه، كيف كان ومم كان؟

فالمستمسكون بحبل الله من أهل الديانات، لا يجدون من النصوص القاطعة فى هذا الباب ما يهد لهم السبيل إلى برد اليقين، إلا ما كان من مثل حديث أبى موسى الأشعرى الذى رويناه لك آنفاً، وفيه أن الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة، زوده من تمارها وعلمه صنعة كل شيء..

وأما الجانحون للافتراض فإنهم لا يجدون فى هذا الباب عتناً وحسبهم أن يقولوا: إن غذاء الإنسان إبان خطواته الأولى على أرض الله، كان متسقاً مع طبيعة المرحلة التى كان يحيا فيها بين أسماع المخاطر وأبصارها، أبعد ما يكون عن التصنع والتكلف والتعقيد.

أهل الدين أيسر طريقاً:

وليس يرتاب ذو نظر منصف فى أن تاريخ النشأة الإنسانية، إنما هو من الغيب المحجب الذى لا سبيل إليه ليقين، بل لا سبيل إليه لظن غالب، إذ كان ذلك مما لا يبلغه الطالبون إلا من طريق نصوص لا تحتمل التأويل، ومثل هذه النصوص من البعد بمكان ممكن.

الافتراض سبيل إلى المعرفة:

وغير جائز لك - ثبت الله على طريق الحق خطوك - أن تنكر باب الافتراض على الإطلاق، إذ كنت - بهذا - تخاطر بنفسك، وبما عسى الله تعالى أن يكون قد ذخره لك ليتفجع به الناس منك في قابل حياتك من معارف وعلوم. إن أعظم ما كشف عنه العلم الحديث، بدأ فرضاً، وانتهى حقيقة علمية جليلة الأثر، بحيث لا يعرف أحد كيف ولا أين تنتهى بالبشرية في قابل من الزمن قريب أو بعيد.

كان أفلاطون - تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو طاليس - ينظر إلى الرياضة على أنها شيء مقدس، وكان يرى قدسيتها في حركة الكواكب والنجوم، وهى حركة دائرية، كما كان يتمثل قدسيتها أيضاً فى الموسيقى، إذ هى مؤسسة على علم الحساب. والموسيقى عنده قدسية جميلة.

وقد تبع فيثاغورس أفلاطون فى ذلك الذى كان يؤمن به، فقال هو وأتباعه على سبيل الفرض: إن الأرض كُرة، ولم يكن لقولهم هذا حجة علمية دامغة، ولا أخبر به عن الله تعالى معصوم، وإنما كانت حجتهم تقوم على ما دلهم عليه علم الحساب الفيثاغورسى وعلم الهندسة، من أن أكمل شكل فى الأشكال، هو شكل الكرة، وأن صانع هذا الكون ما كان ليصنعه إلا على أكمل شكل وأجمله. ومن أدلتهم على ذلك الكمال والجمال أن الشمس تراءت كرة، وأن القمر تراءى كرة، وأن قبة السماء كرة، وأن مجرى هذه الأجرام كلها دائرة، والدائرة أجل المسارات وأكملها.

وإذن، فالأرض كرة. لا مندوحة عن تقرير هذه القضية فى هذه الصورة

الجازمة الجازمة مهما تكن الأسباب الداعية إلى تقريرها قليلة أو ضئيلة، لأن ثمة سبباً فيه غناء وفيه كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ذلك أنها لو لم تكن كرة لكانت شاذة غير متسقة مع القوانين التي وضعها خالق الكون لكونه، والفرض أن الاتساق هو الأصل والخروج عليه شذوذ.

ولكى يختفى هذا الشذوذ الذي يُزلزل قواعد الوحدة الكونية، لابد أن تكون الأرض كرة حتى تكون كاملة وجميلة ومتسقة مع كون الله العظيم في كماله وجماله.

كذلك كانوا يؤمنون بهذه الصورة من الخلق إيماناً يقوم على الافتراض، فلما أشرقت شمس العلم الحديث بمنطق حديث وطرائف حديثة، تأيد بهذا المنطق وبذلك الطرائف ما كان قرره فلاسفة الإغريق منذ قرون عن طريق الإيمان بالجمال والكمال والإلهام.

نعم.. والإلهام بعض طرائق المعرفة أو هو نصفها، على ما يعرف ذلك من أنفسهم أصحاب الاستعدادات العليا، معرفة تقع من قلوبهم بمنزلة يقين العقائد ووضوح البدييات.

ولقد قسم أرسطوطاليس تلميذ أفلاطون المعرفة، إلى معرفة تأتي بالتسلسل المنطقي، وإلى معرفة تأتي خطأ وإلهاماً.

وكما يقول الأستاذ العلامة الدكتور أحمد زكي: تمضي القرون ويأتي العلم بتسلسله المنطقي فيقول، حديثاً، بما قال به الإلهام قديماً.

أعطى كل شيء خلقه ثم هدى:

وفي حوار بين موسى وهارون عليهما السلام، وبين فرعون، سألهما الطاغية

المثالة: «من ربكما يا موسى؟»، فأجابه صلوات الله عليه: «ربنا الذى أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى».

يعنى أن الله تعالى أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة الملوطة به، والمبتغاة منه، فأعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار، والأذن الهيئة التى توافق الاستماع، وسائر حواس الإنسان وأعضائه ما تتمكن به من أداء وظائفها التى نيطت بها، وابتغيت منها على أكمل وجه وأحسنه.

وكما تقضى قوانين الكمال والجمال الموحدة فى خلق الله، أعطى الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب وسائر النبات والحيوان ما يتمكن به من تحقيق الغاية التى أريد لها وخلق من أجلها.

ثم كان من تمام نعمة الله جل ثناؤه على الإنسان الذى سخر له ما فى السماوات وما فى الأرض وسخره هو فى عبودية رب السماوات والأرض، أن علمه كيف يرتفق بكل ما أعطاه فى نفسه وفيها سخره له بما يحيط به فى كون الله العظيم من نامٍ وغير نامٍ.

وهذه الآية بهذه المعنى فى سورة طه، تنظر إلى الآية الأخرى فى سورة السجدة ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾، مهما يكن المراد من الإحسان الحسن أو الإتقان فالآيتان جميعاً تستهدفان تصوير غايتين أو تحقيق إدراكين:

أولها: إدراك ما فى أشياء هذا الكون على اختلافها من تنظيم وتنسيق، وفى هذا دليل - أى دليل - على أنه يوجد وراء هذه الأشياء، فى مواضعها، عقل منظم منسق مدبرٌ.

وثانيهما: إدراك أن هذا النظام، وهذا النسق يجرى على أسلوب واحد، مهما اختلفت المواضع من هذا الكون، وفى هذا دليل - أى دليل - على أن العقل

المنظم المنسق المدير في هذا الكون، واحا: على ما يقول الدكتور أحمد زكي في كتابه «مع الله في السماء».

وإذا كان الأستاذ العلامة قد اثرت له أستاذيته العلمية الحياذ فلم يشأ أن يتعرض لفلسفة أو دين، فإنني - بحكم مهنتي - غير مستطيع ذلك الحياذ، فليست لي ندحة عن أن أتخذ من هذين الإدراكين وسيلة بينةً المعالم، إلى تقرير أن هذا العقل المنظم المنسق المدير في هذا الكون، إنما هو الله رب العالمين، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ولئن كان الفلاسفة الأقدمون لم يُثقل عنهم أمام إحساسهم بالجمال والكمال في كون الله العظيم قول يُؤثر في حكمة رفيعة أو مثل شرود، لقد أثر عن إمام الفلاسفة المسلمين حجة الإسلام الفزالي قوله الجليلة، وقد استغرقه الشعور بجلال الله في بديع صنعته: «ليس في الإمكان أبدع مما كان».

وقد أثارَت هذه الكلمات من حوله - رحمه الله - كوامن الحقود، وأغرَت به سينات الظنون، حتى راح بعض الغيارى على جلال الله من أهل العلم يطمعنه بأنه ينسب خالق السماوات والأرض إلى المعجز، إذ ليس في إمكانه جلُّ ثناؤه أن يخلق خلقاً أكمل من هذا الخلق ولا كوناً أبَدع من هذا الكون، لأن ذلك فيا توحى به العبارة المأثورة عن حجة الإسلام، غير داخل في باب الإمكان.

ولست ترتاب - جنبك الله الشبهة - في أن الأسلوب الذي تخيَّره الإمام الحجة، تعبيراً عما تجلّ له من عظمة الخالق في الخلق، إنما هو أسلوب أداه إليه استغراقه في الجمال والجلال والكمال الذي تمثّل له في كون الله العظيم، حتى لكأنه قد كان في غيبوبة بهذا الاستغراق فقال ما قال، بل قال ما يقوله الذين راحوا ينالون منه ويرمونه بما هو بعيد عنه لو كان قد تبيأ لهم أن يذوقوا مثل ذوقه.

وعلى أن من الواضح - أو مما ينبغي أن يكون واضحاً - أنه رحمه الله لم يُرد بعبارته هذه إلا أن هذا الكون بلغ من الجمال والكمال والإتقان المنزلة التي لا منزلة وراءها يتصورها عقل أو يرقى إليها خيال، مصداقاً لما قرره القرآن في أكثر من موضع من مثل قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾، وقوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

فبإية صورة يفترضها مفترض - مهما كان غالياً في خياله - وراء الصورة الواقعة في خلق الله، إنما هي صورة مستحيلة الوقوع، لأنها مستحيلة التصور، وإلا لوضع الله تعالى فيها كونه تحقيقاً لقوله سبحانه فيما سُقاه من الآيات الشريفة بدلا من الصورة الواقعة، ومن بدائه المعارف عند أهل المنطق وعلماء الكلام أن قدرة الله - جل ثناؤه - تتعلق بالممكن دون المستحيل، وعلى ذلك فعبرة الإمام الحجة عبارة سليمة لا تُغَار عليها، إلا أن يشاء التحاسد والتحاقد . وقصر النظر أن يرمى بها إلى سينات الظنون.